تأويل الأحاديث

في

(رموز قصص الأنبياء)

تأليف

مسند الإسلام الإمام الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله

١١١٤هـ - ١١٧٦هـ

تحقيق وتقديم

الاستاذ غلام مصطفى القاسمي

١٣٨٥ ﻫ

١٩٦٦ م

قیمت: ۳-۰

طبع ما سوى المقدمة فى مطبع القرآن ، والمقدمة والفهارس وغيرها
طبعت فى المطبع الحيدرى بحيدرآباد (الباكستان الغربى)

مقدمة المرتب

بسم الله الرحمن الرحيم

من الخطأ مايقوله البرفسور "اوليرى" (١) إن التصوف بدأ بتكوين عقائده و فلسفته منذ عهد ذي النون المصرى، و انتهى هذا الدور بقيام جلال الدين الرومي. وأما ماجاء بعد هذه الفترة فشرح وتعليق ليس إلا، وكذا ما يويّده الأستاذ عبداللطيف الطيباوى بقوله. و نعتقد أن هذا صحيح. فتاريخ التصوف بعد الآن تاريخ نزاع وعراك مع السنة، و فلسفته شرح لكتب الأقدمين و توضيح لآرائهم. لم يقم من قال بنظرية فوق الشمول، أو من أوجد طريقة فاقت الطرق السابقة، بل كانوا يفضلون أن ينسبوا أنفسهم إلى القدماء. عجيب هذا الركود. والله، لقد انعدمت روح الابتكار و الإبداع من العالم الإسلامى؟

فما كنت ترى إلا مقلدا تابعا! (٢).

ولو درس هذان الأستاذان مؤلفات شيخ مشائخنا الإمام ولى الله

---

(1) DELE. O, Leary, Arabic Thought etc. (London 1922) P. 202.

(٢) راجع التصوف الإسلامى العربى تأليف عبداللطيف الطيباوى بالجامعة الأمريكية، ببيروت.

الدهلوى فى التصوف لما أقاما رأيا، ولا يخفى عليهما أن طريقة هذا الشيخ لها خصائص لم توجد فى كتب الأقدمين، بل هو أوجدها بفكره و صفاء قلبه، ولا يوجد الركود و الجمود فى طريقته بأن يقلد الأقدمين، و يقتصر على شرح أفكارهم، ولا يخترع من عند نفسه شيئا، و لو نظر الناظر إلى تصانيفه لظهر له أنّ ما ذكره المؤلف الإمام فى تلك الكتب مما كشفه الله عليه، و فهّمه و لم يكشف على أحد قبله مثله، وأيضا لو قيس الإمام المؤلف بغيره من أعلام مؤلفى الإسلام الأصفياء والمتفلسفين لفاقهم جميعا فى ميدان التأليف من ناحية الكيف، و قد صرح بما ادعيت المحدث المحقق بلا مقال الشيخ **محمد بن يحيى** المعروف **بالمحسن** التيمى البكرى الترهتى (۱) فى تاليفه اليانع الجنى حيث يقول: إن علومه (اى الشيخ **ولى الله** الدهلوى) التى خصه الله تعالى بها والتى أشرك معه فيها غيره من سائر الأئمة كثير يكل اللسان عن إحصائها، و لكن لا على أن أذكر طرفا من تلك المفاخر لتبين من رزق الإنصاف، و تنكب تضآليل الاعتساف أنه كم ترك الأول للآخر و لا غرو فان الجدّ ينزل من السماء، و الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فمنها ما أكرمه الله تعالى به من الفصاحة فى اللغة العربية دون كثير من المولدين و غيرهم. إذا سمعت من لفظه الرقيق المعرب البديع خيّل إليك كأنما هو رجلّ نشأ ببادية من علياء هوازن أو كأنما أدّبته امرأة من سفلى تميم.

---

(۱) راجع اليانع الجنى ۸۲ على هامش كشف الأستار من رجال معانى الآثار طبع دارالإشاعة بديوبند ۱۳٤۹ھ.

و منها علوم الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، و أصحابهم و ما اتصل بذلك من مذاهب الصحابة و التابعين و أقوال جماعات من فقهاء المحدثين فاستحضر المذاهب، و حررها، و مارسها، واختبرها، و اطلع على مآخذ المسائل، و منازع الحجج و الدلائل و ميز قشرها من لبابها و مخها من عظامها، و زيّل بين الشحم والورم، و فرّق نار الحباحب (١) من نار الضرم.

و منها علم الحديث و صناعة الأثر، قد استبان للناس مثل ضوء النهار حين تكون الشمس في رابعة النهار أنه غديقها المرجب (٢)، و جذيلها المحكك، و إنه أبان للناس صواه وأبرم مرائره و قواه، و نشر أعلامه و أخفق لواءه، و جدّد معالمه ورد رواءه حتى سلم الناس له أعشار الفضل، ورأوه رئيس المحدثين، ونعم الناصر لسنن سيد المرسلين و هذه فضيلة لا يختلف فيها اثنان، ولا يجحد بها أعداءه فما ظنك بالخلان. والفضل ما شهدت به الأعداء.

و منها علم تفسير القرآن، و تأويل كتاب الله العزيز، فمن نظر في كتبه تقصى نظره فيها، و أنعم كشف القناع عن وجوه عرائسها، وهجم على كنوز نفائسها شهد بتوفر حظه منه، وإنه لنعم الترجمان لكتاب الله،

---

(١) اسم رجل بخيل كان لا يوقد نارا إلا ضعيفة فضرب بها المثل حتى قالوا نار الحباحب لما يقدمه الخيل بحوافرها.

(٢) الغُديق تصغير الغدق بالكسر و هو النخلة. و المرجب المسند بالرجبة و هي الخشبة ذات شعبتين. و الجذيل تصغير الجذل وهو العود الذي ينصب للإبل الجربى، والمحكك الذي كثر به الاحتكاك حتى صار أملس. أي هو الذي يستشفى برأيه في هذا العلم.

و أحبذا العون على تأويله، و إنه كاشف حقايق وحيه و تنزيله.
و منها أصول هذه العلوم و مباديها التى هذبها الشيخ رحمه الله تعالى تهذيبا بليغا، و لخص أمهاتها تلخيصا عجيبا، و أكثر من التصرف فيها حتى يكاد يصح أن يقال إنه بانى أسها، و بارى قوسها. فأما أصول التفسير فكتابه المعروف فيها شاهد صدق على براعته على كثير من أهلها. والحق أنه متفرد بتحقيق هذا الفن و تدقيقه.
و منها علم العقائد وأصول الدين فقد أوضح إلى معتقد السلف، و ميز العدى (١) من الزن من قول الخلف، و بين ما يدان به الله تعالى عقدا من الدين مما ينظر فيه، و يتخير من آراء المسلمين، و إنه كيف يتطابق المعقول و المأثور، وكيف يتخاص من الظلمات إلى النور.
و منها آداب السلوك، و علم الحقايق. فقد تجلى له أمور صادقة جليانا من ربه، و تدلى إليه عرى واثقة فتسبب بها إلى سرادق عزه و جلاله، و تبدى له أسرار لاهوتية و انعكست عليه أنوار ملكوتية، و أكرمه الله بالنفس الزاكية والقوة القدسية. فناجى من ألقى إليه السمع جلية الحال، وأفاض من ذوارف المعارف على أهلها سجالا أى سجال، فلا لسان أنطق بالحقائق من لسانه، و لا ميزان لوزن نقود المعارف أقوم من ميزانه، و ذلك لأنه كان جامعا بين الطرق الثلاثة من السمع و الفكرة و الذوق، فلا يتجلى له شيء من السر الغامض فيقبله إلا بعد ما يشهد بصحته شاهد أصدق من المعقول والمنقول، ويشد أساسه، و يسد خصاصه بينات من الأصول.

(١) بكسر أوله قسم من الحنطة. والزن بكسر المعجمة و تشديد النون الدوس الذى يخالطه الحنطة.

و هذه كتبه المصنفة فى هذا الباب، و كتب من حذا حذوه من الأصحاب حجة على ماذكرته بالغة، وأدلة عليه كالشمس فى أفق السماء بازغة.

وقد جمع الله فى صدره ما شتته بين هؤلاء، فجبر كسرة كل منها بالآخر، و سدّ خلله و جمع بين الطرق، و ماز الصفو عن الكدر و بيّن ما يسوغ النظر فيه مما لاينال بالراى، و ما يقتدى فيه مما قد يبتدى. فجاءت طريقته جامعة لأعلام الهدى. فلا طريق أوضح من طريقه، ولا تحقيق أحرى بالركون إليه من تحقيقه. انتهى ملخصا.

و لولا خوف الإطناب و الخروج عن الموضوع لذكرنا بعض العبارات والنصوص من تآليفه ما يدل على صحة ما ادعيناه، و على علو كعبته فى جميع العلوم عامة و فى فلسفة الإسلام والتصوف خاصة، و لكن نعرض بين يدى العلماء و طلبة العلم أن يطالعوا كتبه من المتون المهمة الأربعة كسطعات، و لمحات، و همعات و ألطاف القدس، وكالخير الكثير فى معرفة حقائق الأشياء و غيرها من الكتب. و ههنا هدف بحثنا تأليفه فى توجيه قصص الأنبياء عليهم السلام، و بيان مباديها التى نشأت من استعداد النبي و قابلية قوته و من التدبير الذى دبّرته حكمة العليم القدير فى زمانه، فقد ألف الإمام لذلك رسالة جيدة سماها "تاويل الأحاديث". و هو كتاب منفرد فى بابه، حجمه صغير، و معناه كبير لايوازيه شيء من مؤلفات عظام لكبار أعلام فى علوم القرآن.

أما كتاب فصوص الحكم للشيخ الإمام محى الدين ابن عربى، و إن كان أسبق منه زمانا، وأشهر معرفة في العالم فهو أيضا ليس بمثابة

هذا التأليف! لأن الشيخ ابن عربي لم يكن هدفه تأويل قصص القرآن و توضيحها، بل يجعلها ذريعة لإبراز فلسفته حيث يسرد قصة كل نبي، و يتخذ من كل قصة مسرحا ليمثل فيه صاحب القصة الدور الخاص الذي يعهد إليه القيام به، و لا تخلو طريقة تأويله للآيات من تعسف و شطط أحيانا لاسيما إذا عمد إلى الحيل اللفظية في الوصول إلى المعاني التي يريدها (١). والرسالة هذه ليست كذلك. فمن تلك الوجهة لها أهمية عظيمة.

شرح التاويل: ظاهر ما قال في القاموس يدل على أن التاويل، و التفسير واحد. حيث يقول: (و أوّل الكلام تأويلا، و تأوله دبره و قدّره و فسره) يقول شارحه العلامة الزبيدي الحنفي: "و ظاهر المصنف أن التاويل و التفسير واحد. وفي العباب: التاويل تفسير ما يؤول إليه الشيء. و قال غيره: التفسير شرح ماجاء مجملا من القصص في الكتاب الكريم، و تقريب ماتدل عليه ألفاظه الغريبة، و تبيين الأمور التي أنزلت بسببها الآي. و أما التاويل فهو تبيين معنى المتشابه. والمتشابه هو ما لم يقطع بفحواه من غير تردد فيه. و هو النص.

و قال الراغب: التاويل ردالشيء إلى الغاية المرادة منه قولا كان أو فعلا.

و في جمع الجوامع: هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح. فإن حمل لدليل فصحيح أو لما يظن دليلا ففاسد، أو لا لشيء فلعب لا تأويل.

قال ابن الكمال: التأويل صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذي تصرف إليه موافقا للكتاب و السنة كقوله: (يخرج الحي من الميت) إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان

---

(١) قلت: إن شئت التفصيل فراجع مقدمة الفصوص للدكتور عفيفي ص١٢.

تأويلا، وإخراج المومن من الكافر، و العالم من الجاهل كان تأويلا.
وقال ابن الجوزى: التفسير إخراج الشيء معلوم الخفاء إلى مقام التجلى، و التأويل نقل الكلام عن موضعه إلى ما يحتاج فى إثباته إلى دليل لولاه ماترك ظاهر اللفظ. وقال بعضهم: التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، و التأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر.
وقال الراغب: التفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختص به (التأويل). ولهذا يقال (عبارة الرؤيا) وتفسيرها وتأويلها اه (١).
هذا ما كتبه علماء اللغة فى شرح معنى التاويل. و المراد منه عندالمؤلف العلام ما كتبه فى تأليفه (الفوز الكبير فى أصول التفسير) بألفاظه: از علوم وهبيه در علم تفسير كه بآن اشارت كرديم تاويل قصص انبيا است عليهم السلام. و فقير براى اين فن رساله تاليف كرده است مسماة بتاويل الاحاديث. و مراد از تاويل آنست كه هر قصهٔ كه واقع شد آنرا مبدأ مى باشد از استعداد پيغامبر، و قوم او از تدبيرى كه خدايتعالى در آن وقت خواسته است. وگويا برهمين معنى اشاره رفته است در آيت (و ما يعلمك من تأويل الأحاديث. (٢)
و يقول شيخنا العلامة عبيدالله السندى: قصص الأنبياء و تعبيرها عن تدبير إلاهى، ثم إتيان مثل ذلك التدبير فى سيرة النبى هو تاويل الأحاديث

(١) راجع تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الزبيدى الحنفى ج ٧، ص ٢١٥. قلت: وإن شئت مزيد تحقيقه فراجع لسان العرب ١٣—١٤: ص ٣٤.

(٢) راجع الفوز الكبير (الفارسي) طبع المجتبائى ١٨٩٨ م.

للأنبياء. و تفصيل ذلك فى كتاب تأويل الأحاديث للإمام ولى الله. (١)

تحليل الكتاب

تاويل أحاديث آدم

ذكرالله تعالى قصة آدم عليه و على نبينا الصلوة و السلام فى كلامه بعبارات مختلفة فى سور شتى. و هى أول قصة ذكرت فى أوائل سورة البقرة. و هى تشتمل على عدة مسائل كإخبار الله تعالى للملائكة بخلق خليفة فى الأرض، و قول الملائكة: أتجعل فيها من يفسد (الآية) وتعليم الله له الأسماء، ثم عرضها على الملئكة، وأمر الملئكة بالسجود له وإباء إبليس عن السجود، ومحاجته لربه، وخلق حواء، وإسكانهما الجنة، وإضلال الشيطن لهما، وإغراء هما على ألاكل من الشجرة الممنوعة، و إخراجهما من الجنة، وهبوطهما إلى الأرض و غيرها.

ولا حاجة لنا إلى سرد ما كتبه أكثر المفسرين فى هذه الأسئلة لأن أكثر ما كتبوا نقول و حكايات على لسان بنى إسرائيل و المؤلف الإمام له نظرية خاصة فى شرح قصص الأنبياء و تأويلها فى تأويل الأحاديث، فإنه لايسرد القصة بتمامها، بل يشير فى كل واقعة إلى تعبير تلك الحادثة و وجه خصوصية شبحها، و فى كل خارق يشير إلى الأسباب الضعيفة له، لأن العالم عالم الأسباب، ولا يخلو كل حادثة عن سبب ما ولو ضعيفا لا يدركه عقول العامة. فمعجزات الأنبياء وإن كانت بخارقة عن العادة و خالية عن السبب الظاهر، و لكنها لا تخلوا عن سبب خفى يعرفه الخواص من أهل العلم و ذوى البصيرة.

---

(١) التقريرات التفسيرية الخطية لشيخنا العلامة السندى.

و اعلم أن كل ما يشير إليه المؤلف الإمام من تعبير الأحاديث و القصص المنزلة في كلامه تعالى فمبناه على مصطلحه في إنزال العلم من الله تعالى على البشر بلسان البشر، فإن الله تعالى ينزل العلم على البشر في مرتبة التجلي و التدلي، لا في درجة الإطلاق و الصرافة الأولى التي هي مرتبة الذات. و المؤلف الإمام لا يسلم المجاز و الكناية فيه، بل له اصطلاح خاص يسميه "التجوز الطبيعي" و فسره بمحاكاة حادثة و واقعة منتظمة، أو كلام في كناية بسر إجمالي معنوي بالعلاقات التي تراعيها الطبيعة في المنام إذا تلقت العلم الإجمالي و صورته بصورة. فالأحوال الطارئة على نفوس الكمل، و الواقعة المنتظمة في عالم المثال حكمها حكم المنام، و كذلك الحوادث الواقعة في العالم كلها منامات. و لها أصول و أشباح.

مثاله في قصة آدم: إن الله أراد أن يجعل في الأرض خليفة، فخلق آدم للخلافة. و خلقه في فلسفته عبارة عن ظهور إمام نوع الإنسان في الناسوت بطلبه، و ليس عنده بخل و ضنى، و كان هناك ملائك سفلية من أقسام الناطق، و هم الذين يعملون في العناصر بإلهام الله و يستحقون الإلهام بما سيقع، فألهم الله تعالى إليهم أنه سيجعل آدم خليفة في الأرض يكون من شانه سفك الدم و الفساد في الأرض، فيجازى في الدنيا والآخرة فقالو مستفهمين أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء (١) وهذا ليس باحتجاج عليه تعالى. فاشتبهت عليهم الحكمة. فإن قيل كيف اشتبهت عليهم الحكمة، وهم ملائكة؟ قلنا: إن هذا غير مستبعد عنهم لأنهم لا يعلمون إلا ما ألهموا. فاقتضت حكمة الله أن يعلمهم ماجهلوا بإلهام إجمالي

(١) سورة البقرة ٣٠

أن لله حكما لا يعلمونها، وإليه الإشارة فى قوله تعالى (إنى أعلم ما لا تعلمون(١) وبواقعة تفصيلية ثانيا، فاجتمع بإذن الله مادة العناصر فلما اعتدلت العناصر، وتعفنت تعفنا طيبا روحانيا لادنسيا وصار الطين كالفخار نفخ فيه روحا فصار حيا. و هذا معنى قوله: (و لقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) (٢) واعلم أن آدم عليه السلام قد أحاطت به حقيقة من عالم المثال يعبر عنها بالجنة، فعومل بآدم معاملة أهل الجنة وهو صار جسدا مثاليا. والمتجسد المثالى ليس له استقرار فى الأرض، فانسد له باب كونه خليفة فى الأرض. فكل ما ظهر له من بعد هذا من التقريبات تنبيه لآدم عليه السلام فظهرت التقريبات بتنبيه آدم عليه السلام بأن أكله للشجرة حرام عليه لأنه سبب للخروج من الجنة، وانعقد عليه هذا التنبيه وحيا، وكان الشيطن مستعدا لإلقاء الوسواس، فأكل فعوتب، وأخرج. وهذا كله منام و رؤيا. فالحادثة حادثة عالم المثال، وكان له منام ورؤيا.

وتعبيره عند المؤلف الإمام: أن الله أراد به أن يصير خليفة فى الأرض، ويبلغ إلى كماله النوعى. أما نهيه عن أكل الشجرة، وإلقاء الوسواس من الشيطان، ثم معاتبته، وإخراجه فكله صورة التقريب من عالم المثال إلى الناسوت تدريجا. وعلى هذا يعرض سوال بأن الجنة من عالم المثال، وآدم عليه السلام كان أرضيا خلق من طين، ونفخ فيه من روحه كما ورد فى الكلام المنزل (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) فكيف وصل إلى الجنة؟ وهى من عالم المثال. فأجاب عنه المؤلف الإمام فى تأليف آخر بأن آدم عليه السلام وإن كان أرضيا،

---

(٢) سورة البقرة ٣٠

(١) صورة الحجر ٢٨

ولكن بكماله وسبوغه اكتسب بدنا أخرويا، فأسكن فی الجنة فشابه حينئذ للتمجسدالمثالی. (۱)

و لما كان القصد فی إيجاد آدم إلی إنشاء نوع الإنسان التوی فی شخصيته حكم النوع، وأيضا لما كان من اجتماع همم الروحانيات التوی فی روحه حكم الروحانيات.

فلما كان حديث عهد بربه، ولم يقوفيه نظام العناصر، والأخلاط، وكانت حالته تشبه الطفولية و لم يكن قادرا علی كسب المعيشة والجری وراء حاجته عومل معه معاملة أهل الجنة حينا من الدهر.

والجنة هل كانت أرضية أو سماوية؟ لم يصرح المؤلف الإمام بشیء وشارح فلسفته شيخنا العلامة السندی صرح بكون الجنة أرضية (۲) وهو ليس بمتفرد فی هذا بل قد حكی هذا القول عن أبی بن كعب وعبدالله بن عباس رض و وهب بن منبه وسفيان بن عيينة، و اختاره القاضی منذر بن سعيد البلوطی قاضی الجماعة فی تفسيره، وأفرد له مؤلفا علی حدة، وحكاه عن أبی حنيفة الإمام وأصحابه رضی الله عنه، ونقله أبو عبدالله محمد بن عمر الرازی ابن خطيب الری فی تفسيره عن أبی القاسم البلخی وأبی مسلم الأصفهانی، و نقله القرطبی فی تفسيره عن المعتزلة و القدرية. وقد حكی الخلاف فی هذه المسألة أبو محمد بن حزم فی الملل و النحل وغيره. (۳)

(۱) راجع التفهيمات ج۲ ص۱۱۸ طبع المجلس العلمی

(۲) راجع تفسير إلهام الرحمٰن ج ۱، ص ۹۳.

(۳) راجع قصص الأنبياء، تاليف عبدالوهاب النجار، ص۹. و التفصيل فی البداية و النهاية لابن كثير ج ۱، ص ۷۵.

أما سجود الملائكة لآدم عليه السلام فليس المراد من الملائكة هنا عندالمؤلف جميع الملائكة، بل الملأ السافل فقط كما صرح به فى تأليفه الشهير: "الخير الكثير" حيث يقول. وأما سجود الملائكة لآدم عليه السلام فإنما كان عندنا من العنصريين الذين منهم إبليس، لا الفلكيين. و به يفك العقدة فى قول الله تعالى (كان من الجن ففسق عن أمر ربه)، والاستثناء متصل فتعرف. (١)

و هذا التحقيق و إن كان خلاف مسلك المتكلمين لكنه لايرى وجوب موافقتهم فى مثل هذه المسائل، و قد صرح بهذا فى مقدمة حجة الله البالغة و مع ذلك كان يدارى أهل زمانه أحيانا، و ذلك لعدم صبر أهل زمانه على مخالفة المتكلمين، و لذلك يتكلف فى تاويل الأحاديث و يؤول بأن ملائكة الملأ الأعلى تمثلوا بالملأ السافل عندالأمر بالسجود للملائكة، وسجدوا فصار السجود من جميع الملائكة.

خلق حواء

قال الله تعالى (و خلق منها زوجه) و هذه العبارة محتملة لأن يكون الله قد أخذ ضلعا من أضلاع آدم، و خلق من ذلك الضلع حواء، و قد قال بذلك كثير من العلماء. أما عند المؤلف فهى مخلوقة من تخيل آدم. فآدم عليه السلام كانت فيه طبيعة شهوية فاشتاق إلى أنثى من جنسه شوقا قويا، فتخيل صورة الأنثى تخيلا حثيثا فوجدت من تخيله.

قال شيخنا العلامة عبيدالله السندى: إن الأحاديث التى وردت بأن

---

(١) راجع الخير الكثير ص ٤٣، طبع المجلس العلمى.

الخروج من الجنة، و يوصله إلى العناء، وأيضا ألهم علما آخر. وهو أن أكله سبب الخلد أى بقاء النوع فنزل العلمان على الطبيعة، و اشتبه الأمر عليه، و صار متحيرا مترددا. فكنى الله تعالى عن التحير والتردد بالنسيان. ثم هاجت فى صدره داعية شهوية فأكل. فكان هذا العلم مع الاختلاط بالباطل وسواسا شيطانيا، و كان تقريبا لما أراده الله تعالى فى الأزل.

ادريس عليه السلام

ادريس عليه السلام وصفه الله فى كلامه بأمور. أحدها أنه كان صديقا نبيا، وثانيها قوله تعالى (ورفعناه مكانا عليا) (١) و فيه قولان: أحدهما من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد ﷺ (و رفعنا لك ذكرك) فإن الله تعالى شرّفه بالنبوّة، وأنزل عليه صحائف. و هو الراجح عند الإمام أبى البركات عبدالله بن احمد بن محمود النسفى صاحب المدارك، حيث يقول تحت تلك الآية: هو شرف النبوة و الزلفى. و ذكر قول الرفعة فى المكان بصيغة التمريض (٢) و الثانى أن المراد به الرفعة فى المكان. و هو الأولى عند الإمام الرازى (٣)

و الأشهر فى اشتقاقه من الدرس. والإمام النسفى صرح بإنه غير صحيح حيث يقول "و قولهم سمى به لكثرة دراسته كتب الله لا يصح، لأنه

(١) سورة مريم ٥٧.

(٢) راجع المدارك ج٣، ص٣٨، طبع عيسى البابى الحلبى و شركاه.

(٣) راجع التفسير الكبير ج ٢١، ص ٢٣٣، التزام عبدالرحمن محمد بميدان الأزهر بمصر.

لو كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد، و هوالعلمية' وكان منصرفا' فامتناعه من الصرف دليل العجمة (١).

يقول العلامة موسى جارالله: زرت كبير البراهمة فى بنارس . وكان له اهتمام بالقرآن الكريم و إلمام' ذكر فى أثناء كلامه: أن ريش فى لسان البراهمة هوالرسول. ديو ريش هو عظيم الرسل. فتحدست ثم سألته فقلت: فما معنى كلمة "اِد" فى لغة البراهمة فسكت هنيهة' ثم قال "اِد" معناه الأول. ففرحت فرحا، و قلت فى نفسى: فإدريس معناه: أول الرسل أو رسول أول. عددت هذه الفائدة نفحة إلاهية، و رحمة اتفاقية' هدتنى إلى ماورائها' و شكرت الله (٢).

يقول المؤلف الإمام: كان إدريس عليه السلام فى ابتداء أمره من شيعة آدم عليه السلام يقفو أثره فى العلوم الإنسانية' وكان كماله يومئذ التجرد إلى أحكام الصورة الإنسانية' ثم ترقى إلى حكمة انسلاخية. والانسلاخ عند المصنف عبارة عن قهرالعين على تمثلاته بحيث تصير كالمعدوم' و يكون كما كان فى الأزل' ولا يكون له كمال دون فيضان وجوده. فلا سمع دونه ولا بصر دونه فتكون كأنه جسم أخروى . (٣) ثم إلى نقطة اللاهوت' ثم تنزل إلى علوم طبيعية' و إلهية، و نجومية، و طبية، و ارتفاقية . ثم بورك فى تلك العلوم فنشأت ملة المجوس، وكانت هذه العلوم حقة يومئذ، و إن كان اليوم

---

(١) راجع المدارك ج ٣' ص ٣٨.

(٢) راجع كتاب حروف أوائل السور ص ١٦٧؛ طبع بهوفال.

(٣) راجع الخير الكثير ص ٥٩.

الحق المشوب بالباطل. ثم ترقى إلى هيئة ملكية بكبح الطبيعة، وأحاطت به الجنة و رفع مكانا عليا.

نوح عليه السلام

ذكرت قصة نوح عليه السلام مفصلة فى سورشتى من القرآن الكريم فى سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة المؤمنون، و سورة الشعراء، و سورة القمر، و سورة النوح. و كان لنوح عليه السلام عندالمؤلف العلام كمال آخر وراء النبوة، و هو الاقتراب بالكائنات السفلية (١) و كان مزاجه التراكم. و هو عبارة عن صورة جوية تشبهه صورة المزاج، و كان قوى القوة، وكذلك أكثر قومه كان قويا. فنزلت شريعة قوية تكسر حدة مزاجهم من دوام القيام، و الصيام، و سائر الطاعات القاهرة على القوة الحيوانية، و لما كان ركونهم إلى أمور تناسب البهيمية أفسدوا الارتفاقات، و خرجوا عن معنى الإنسانية، و إن كانت صورتهم صورة الإنسانية. فانعقد عليهم الغضب فى الملأ الأعلى، وقضى بهلاكهم، فوجب فى حكمة الله الإنذار. و لما كان إعدام الأنواع شرا عظيما فألهم نوح عليه السلام صناعة السفينة لبقاء أصول الأنواع، فلما أتم عدته، وجاء الموعد، جمع فيها الأنواع من كل نوع ذكرا و أنثى.

و كان التدبير الإلهى ينتظر واقعة عظيمة من وقائع الجو يعذب قوم نوح فيها. حتى إذا توافقت الأسباب السماوية و الأرضية على طوفان عام مائى نفذ الله عند ذلك قضائه. و كان جميع علوم نوح عليه السلام

(١) راجع الخير الكثير ص ٦٦، طبع المجلس العلمى.

من العناية بالطبائع الأرضية و العناية بالأحكام الفلكية و غيرهما فجعله الله الآدم الثانى.

هود و صالح عليهما السلام

كان هود عليه السلام ينذر قومه عذاب الله، و يذكر لهم المثل بقوم نوح، و يذكرهم بنعم الله تعالى عليهم، وهكذا كان صالح عليه السلام. والقوم كانوا أصحاب أوثان يعبدونها فكان أمرهما فى أنفسهما و أمر قومهما فى الكفر و الفسق و القضاء بهلاكهم عند المؤلف يشبه بقصة نوح عليه السلام.

وعاد كان قوم هود. وكان مسكنها الأحقاف و الرمال، و كان هواء ديارهم مائلا إلى اليبوسة و السخونة، كان أقرب وجوه العذاب فى حقهم الطوفان الهوائى، فلما رؤا السحاب أى المادة المجتمعة فى السماء زعموه سحابا ممطرا، وكان ما استعجلوه من عذاب الله فتحوّل ريحا صرصرا.

و لما كان مسكن ثمود الجبال، و المغارات كان أقرب التعذيبات فى حقهم الزلازل، و الصيحة.

كل شر فى الملكوت فإنه يتمثل بصورة حيوان، لأن الشرور لها مناسبة جبلية بالحيوانات. فظهر شرورهم بدعوة صالح عليه السلام بصورة ناقة فلما قتلوها تروح الشر وجاء الطوفان.

ملاحظة: عاد: قبائل عربية قديمة كانت تسكن فى القسم الجنوبى من جزيرة العرب الذى كان يسمى بالأحقاف أيضا. وهى أكثبة الرمل. وثمود: قبائل عربية قديمة كانت تسكن فى القسم الشمالى الغربى من جزيرة العرب فى طريق المدينة والشام وفى المنطقة المعروفة اليوم بمدائن صالح.

قصصها هى عربية قديمة وليست توراتية، والسامعون من العرب لايجهلونها، وأنها وصلت إليهم منقولة من جيل إلى جيل. فدمّر الله تلك المساكن بعذابه بسبب تكذيب أهاليها لرسوليهم هود وصالح عليه السلام.

قال فى التفسير الحديث. بلاد عاد هى فى جنوب اليمن مما يعرف اليوم ببلاد حضر موت، وبلاد ثمود هى فى شمال الجزيرة العربية وعلى طريق بلاد الشام مما يعرف اليوم ببلاد مداين صالح. وكانت القوافل الحجازية التجارية تمر بمداين صالح فى طريقها إلى بلاد الشام ومصر كما كانت تصل إلى بلاد حضر موت فى رحلتها الشتوية إلى اليمن.(١)

ابراهيم عليه السلام

إعلم أن أفراد الإنسان مختلفين فى ظهور الأخلاق الباطنية والملكات النفسانية. فنهم من يكون الشجاعة فيه مفقودة، ومنهم من يكون فيه ضعيفة، ومنهم من يكون فيه متوسطة، ومنهم من يكون فيه قوية، ومنهم من يكون فيه فى غاية الشدة بحيث لايمكن له حبس نفسه عن مقتضيات الشجاعة. وهو الإمام فى الشجاعة لايحتاج إلى إمام آخر. وبالجملة فالناس مختلفون فى الفطرة كاختلافهم فى الشجاعة. فمنهم الإمام فى الفطرة، وهو المندفع بالضروة إلى العبادات بحيث ليس لرسم ولا طبع ولا قاسر أن يمنعه عن مقتضى فطرته.

فإبراهيم عليه السلام كان خارجا إلى الفطرة، وكان إماما فيها عندالمؤلف وبحسب هذا الخلق يترشح عليه علوم إلهٰية، ولحق بالملأ الأعلى وانعكس عليه النور منهم وفى ضمنه تيسرله التوجه إلى الرحموت فلذلك جعل إماما، وأمرالأنبياء عليهم السلام باتباع ملته.

---

(١) راجع التفسير الحديث ج ١ ص ١٥٠ تاليف محمد عزة دروزة طبع دارإحياء الكتب العربية بمصر.

فلما بلغ أشده آتاه الله الحكمة، وانكشفت عليه فطرته، فلما رأى الكوكب والقمر والشمس آفلات تذكّر منها أن ربه الذي يربّيه، ويهديه وهو برئ عن أحكام الأجسام. فأشرق عليه الحق. وكان ذا غيرة شديدة على مايعبد من دون الله كما جاء في سورة الأنبياء. "ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين - إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون". فأراد أن يقيم لهم برهانا عمليا على أنها لا تلحق لهم أذى إذا تركوا عبادة الأوثان أوتكسبهم خيرا إذا عبدوها، فكسر الأصنام حسب ما أقسم كما جاء في سورة الأنبياء: "وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين" فلما أعيت للمشركين الحجة عمدوا إلى إهلاك إبراهيم وألقوه في النار.

كيف صارت النار بردا وسلاما كان إبراهيم عليه السلام عبدا مرضيا يريد الله بقاءه في الخلق، فأفاض على مادة النار هيئة باردة دفعة واحدة في ضمن ريح هبّت عليها من الطبقة الزمهريرية، حملت برودة شديدة فغيرت النار فحصل من تصادمها هواء طيب.

رحلة ابراهيم من وطنه واعتراض جبارله. ثم إن إبراهيم عليه السلام ضاق صدره بمجالسة الفجار، وتبرأ من قومه فهاجر إلى أرض يمكن له فيها عبادة ربه أي إلى بلدة أور الكلدانين ثم حاران وبعد ذلك إلى فلسطين، ومعه زوجته سارة؛ وسكن إبراهيم في تلك الأنحاء فحدث جدب فانتقل إلى مصر فاعترضه جبار يريد أن يظلمه على امرأته سارة، فدعى الله تعالى، فأوحى الله إلى الملائكة أن يدخلوا في جسد الجبار من قبل الريح المنبعث في البدن فتشنجت يده، فلما رأى ذلك تركها وأخدمها هاجر،